



الواقعيون الروس العظام من بوشكين إلى تورغنيف

قاتلة السنابل.. مدينة منكوبة



عبدالحافظ الصمدي

أزمات تتكالب وسنابل الحكماء مقتولة في بداية عمرها، وحلول يابسة على طاولة جعل منها الانتظار كومة ضجر.. ما الفرق إذا: مزاييدات أو مؤامرات في ظلها تنهأى أوطان وتقول لفرسانها كونوا.. ليلظوا على سهوات الفجر نياما..

المصطلحات قد لا تبعد عن مرادفاتنا كثيراً، سير أو نار.. والمكابح والمتأمر أيضاً ضحية كلاهما وطن، بيد أن المتعالي على وطنه جان يقترف الجرم بخيلاً، يسفك شعباً ويتبختر بزى الوطنىة.

خطى التأمّر تقترب.. ترسم المستقبل مؤثلاً.. والواقع لم يصرخ بعد.. الحكمة لم تؤت أكلها، ووطن يتقوقع في مسئولية تغط في سبات الالامبالاة ومراكبها تبحر في النسيان لم توقظها صفارة أزمة مرتقبة، وكل ما هو وطني في مفهوم الالمسؤولية ليس سوى دبوس نحمله في حقيبة سفر، ثم دسه في الحقيبة الدلبوماسية بين أغراض التناهب للرحيل دون قصد منا، فحين يصيح العزف على أوتار التزلف صعباً.. تصير المدينة سيمفونية رائعة بعيون الغرياء وحدهم، فيما مقاماتها تتصبب إرهاباً على مسودة ماضٍ ألتفها الحاضر، تتجدد بدكتاتورية الآراء وأنانية الأهواء.

• رواية الخسران: المدينة ومآذنها ونشوة الأطفال وعصافير حدائقها.. مسودة شاخت بلحظات بالية تتمرّق في مشهد يبدن فيه الضحايا رواية الخسران، ينزفون نصها ألماً ومرارة.. قصاصاتها تنهأى بين أصابع الواقع كقطر يتردى من شاهقة سحيقة، تنهأى كمثدنة مهزومة تعبر في طريقة سقوطها عن إلال شموخ لم يعرف التجنّد والالتحاء قبل لحظة السقوط المهيّب..

ذكرى المدينة تنتفض كمشروب طاقة يعشش فينا الندم، لكن القادم يولد من تاريخ أبيض بمفاهيم العتمة النكرة في مسودة وطن.

• الفئجان المسموم: الحنين إلى المعطف القطني، يولد من صقيع الفجر، ذاك مخاض غير مبهم كما قد يولد مساء من ذات المعطف الضجر.

الشيخ المتحدّق قبل أن يغتال من التاريخ باكورة مجد ليفجع شمس الضحى ويجعل من الهوية والانتماء ضحايا في فجانعية الأحداث.. يودع كل صباح أريكة ظلت على امتداد الليل تلئن أوراق القات، وجهد متحدّق أنكه مخدعه بأفيون تفكير ابتاعه من خلف أسوار المدينة ليدوخ الخمد المزعوم لديه ويسافر في المغيب «ذو الأكتاف».

بات المتحدّق يجيبك من السهر مصطلحات تجلب له التأييد ويخفف أرقاقا تغطي سوءاته قبل أن تنتصب المصطلحات بغتة مشائق لكل تنتقي الرقاب دون استثناء.

كل صباح يقاوم المتحدّق شيخوخته للسيطرة على معطف يشاكسه، يحاول مغادرة جسده البالي في اللحظة الواحدة مرات، ليكون قعود الكهل المتهاك بمثابة هدنة بينه وبين العطف فتجنّحوا كل الأمل بين يديه ويمتطئها بسهولة: واحدة تلو الأخرى، وإن كان الفئجان يسافر إلى شفتيه بصعود طويل على يديه المرتعشتين.. نغعد بجواره لنحتسي معه ذات الفئجان المنتشي براحنة البرن المحروق، ونستقي الصباح نخياً حين يبدو اللقاء بسررب الألفة ذا جو مبعز برفقة العصافير، يستعذب الجرب فحيح الأفاعي قبل أن ندرك السقوط الجماعي في ذات العلة، فعندما يوحدا الداء يفترقا التكهّن بالوآء حين لا يجدي الحنين إلى الماضي ولا العويل على الواقع

للحطم بالخيبة والخسران.. معادلة تترصدنا، نبرهن من معطياتها حقيقة لا مناص من التزلق فيها والعبرة انتظار فاشل لن تأتي وإن طال الوقوف طويلاً تقدموها، فمجيء الاتعاط متعتر ولو كان طليقاً تكيله الأهواء عند الاقتراء منا.. وقيل لحظات من أن تتلاشى الحقيقة ويسود الوهم، ندرك أن العبرة موقوفة الخطى إلى جندع التعتت والإصرار على الخطأ..

• كانت هنا مدينة: نفيق من التأمّل المنبؤ، تستسبغنا أضغاث أحلام ونهمل من سراب التحادق فناجين مشثومة ونحن نغف في سياسة عميقة..

الريبة تفتح شهية الفرقة فيما بيننا ليبتلع بعضها الآخر، والغفلة والنهم وحدهما من يسودان الموقف ونحن نستظل من شمس الحقيقة تحت مخالب النسيان.. فمشكلتنا في البيضة والمنام معا في أن نرى من الوطن عككة يحرص كل منا بحماقة قدرة على أن ينال منها نصيباً، في حين يبحث المريض فينا عن شقرة حادة ليشطر بها الكعكة تصفين بذريعة أن الأمر يرضينا طرفين حيث تعضنت الحلول على تابوت صنعناه بأيدينا، ولم يبق سوى القبول بأن تنجرع الخيار الحرن أثمرت الرقوم غايتهم يجنونها عنياً، فيما نلغق مرارتها كمنادق التاريخ الملعون، في سخافة وصف تنلّهي به، إذ نحن من يستحق لعنة التاريخ..

• كانت هنا مدينة: لقد عاد «ذو الأكتاف» أخيراً يتنفس الدخان المتطاير من البارود، يتحسس باليمنى جرحه والآخرى تتأبط شرًا.. والنتيجة المرة، فطن المتأمر بحالفه النصر أحياناً والمتحدّق في معركة حسمتها الريبة والفرقة خسران..

فهل نتمنى من بخت لا يجدي أو قدرة سماوية أن تضرب على آذاننا في الكهف الضيق قرونا، أم نفتح أعيننا على هادية سحيقة عهد عنها أن تجعل من الأوطان براكين..

ما كان ليعود الشؤم المسافر بالمغيب، لولا أنه قد كسب الماضي حين س فحيح زواحفه في فئجان الكهل المتهاك، صنع المستقبل بعجينتنا فهدير الموج الخلاب طوفان لا يرحم، يجرفنا... والحلم صباح لم يشرق بعد..



تلبت طويلاً حتى تتجلى على أبداع شكل في الرواية، فكان الأدب الروسي بين 1800 - 1820 يبحث عن سبيله، وكأنه يرتضي الرومانسية برهة ريثما يعثر على تلك السبيل، ولذلك فليس فيه رومانسي حقيقي واحد حتى من جماعة بوشكين. (بول فان تيغيم (الرومانسية في الأدب الأوروبي) الجزء الأول ص: 285).

ديستوفسكي: الرواية الروسية خرجت من (معطف) غوغول

ومن المفارقة المدهشة أن غوغول اعتبر (النفوس الميتة) أعظم إنتاج له، وهذه الرواية واحدة من شوامخ الأدب الروسي، عكست الحقبة بكل ردائلها. يُقال أنه عندما قرأ بوشكين الفصول الأولى من الكتاب صرخ: «يا لهي ما أياس بلادنا، وما أياس هذه روسيا!»

وقد أشار بليسنسكي إلى «أن (النفوس الميتة) موجهة إلى المجتمع الروسي بأكمله، وفي ذلك تكمن قيمتها وأهميتها على مستوى الوطن كله، إن ما صورده غوغول فيها لا يتعلق بإقطاعيين وموظفين حكوميين فقط، بل بأناس كثيرين في المجتمع الروسي في ذلك الزمن ممن اضطروا للعيش في ظروف المجتمع الموبوء بالعبودية والاستبداد المطلق».

لقد حددت النفوس الميتة ملامح الرواية الروسية مدة طويلة من الزمن. إن روسيا، هذه البلاد الأسطورية، الممتدة بشكل خرافي في أضعاف آسيا وأوروبا، هذه البلاد الشاسعة المترامية الأطراف، المتطرفة في مناخها، بين الجليد الأبدى، والصحراء المحرقة في قره قزم. هذه البلاد التي انجبت عملاقة الأدب، والتي أصبحت الممثل الحقيقي وبكل جدارة للأدب السلافي، كانت وما زالت في هذه المرحلة وما بعدها تتحف الأدب الإنساني الذي ستتغنى به الأجيال بعابرة يضيء إبداعهم في دنيا الأدب، فعلى مشارف عام 1852 بزغ نجم ساطع جديد في دنيا الأدب، اسمه هذه المرة (تورغنيف).

تورغنيف الذي كانت باكورة إنتاجه الأدبي (مذكرات صياد)، والتي أصبحت حالماً ظهرت في المكتبات حديث النوادي الأدبية البيئونة في أرجاء روسيا المترامية الأطراف.

يقال إنه لا يمكن لأي درس للرواية الروسية إلا أن يضع (مذكرات صياد) في المكان الذي تستحقه في مجرى تطور الرواية، إنها نتاج إبداعى بالغ الأهمية والتأثير، عكس بصدق، وشاعرية قل نظيرها، ويعمل على يتوافر إلا أن ملك موهبة كموهبة تورغنيف ودقة ملاحظة متناهية، عكس حياة الفلاحين بكل قسوتها ويساطنتها، بكل رتابتها وتعقيدها، وكشف فضائل ونقائص وعبوب الفلاح الروسي، وربما الفلاح بوجه عام، فهو قاس ورحيم، حريص وكريم، صبور ومتسرع، ومثلما عكست (مذكرات صياد) هذه الجوانب في حياة ونفسية الفلاح الروسي، فإنها عكست أيضاً، وبالتراقف مع هذا، ما جبل عليه هذا الفلاح من ذكاء فطري، وحكمة موروثية، وإحساس سليم بالطبيعة وما يحيط به، والأهم من هذا وذلك غنى الحياة الروحية، والطبية والسمو، وهي لم تقف عند هذا بل بيّنت بوضوح ودقة شرور الرق وما فيه من وحشية وقسوة لا إنسانية، وعرت بكل قوة بشاعة استغلال الأسياد، هؤلاء الذين كانت رفاهيتهم تبني على دمار الآخرين. هذه الرفاهية المفرطة التي عطلت وأعطبت إحساسهم بالعلاقة السوية بين بني البشر، وقتلت بالتالي ينباع الإنسانية في داخلهم.

ومن جهة أخرى فقد جسدت (مذكرات صياد) الملامح الشعبية لشعوب روسيا المترامية الأطراف، وتنوع هذه الملامح والسمات، وبالتقابل فإنه عندما صور النبلاء صورههم كأناس فقدا والسمات والمزايا القومية تحت تأثير الكوسموبوليتية الأرستقراطية.

ويواصل تورغنيف تثبيت مواقفه في عالم الأدب الروسي، فيتحف هذا الأدب بروايته الرائعة (دورين)، هذه الرواية التي شغلت الأوساط الأدبية ودحا من الزمن، والتي عد بطلها (هاملت) روسيا.

آخرها. (يطل من هذا الزمان) رواية سيكولوجية اجتماعية في آن واحد، وكذلك المراهق، وهما تصوران في جوانب عديدة النضج، تضخ مجتمع بالنسبة ل (يطل من هذا الزمان)، وتضخ العلاقات الأسرية للأسر الألية للسقوط في (المراهق)، وهما تصوران الفوضى، ومحورهما الأساسي الإحباط، والفرق أن بتشورين انتهى من حيث ابتدأت الرواية، فهو شخص تالف ومنخور، وبلا هدف، أما إركادي فقد قدمت مذكراته رواية التربية الذاتية لصبي.

(يطل من هذا الزمان) تكشف الخراب الروحي في شخص بتشورين الذي يمثل ردائل جيل كامله، و(المراهق) تصور ردائل أسكان عليها أن تغادر مسرح الأحداث والحياة، كما تصور البشر الذين استحالوا أدوات شريرة جراء الجشع والطمع، والرغبة العارمة في التسلسل، التسلسل الذي هو في جوهره لغرض الكسب والمزيد من الكسب، بكل الطرق مهما كانت دنيئة وخسيسة، كما تعري الأرستقراطية المظهيرية والدناءة والخواء الروحي الداخلي.

وإذا كانت (يطل من هذا الزمان) قد سببت نغمة القيصصر على مؤلفها، وأدت إلى نفيه مجدداً إلى القفقاس، ذلك لأن ليرمنتوف الحريص على استقلاليتيه، كان يحمل في أعماقه احتقاراً بالغ الحد للأرستقراطيين، الذين لم يهادنهم، والذين اندفع في تعريتهم وتعرية عبوب مجتمعهم المبني على المفاسد، فإن المراهق إنما هي نتاج ما بعد السجن بالنسبة لديستوفسكي، وهي واحدة من خمس روايات عبقرية: (الجريمة والعقاب)، (الابله)، (الابلاسة)، (المراهق)، (الأخوة كارامازوف). وواضح أن ديستوفسكي لا يحترق الأرستقراطية ويعريها فحسب، بل يحدد بدقة ويمحوح لا جدارتها بالبقاء.

لكن بوشكين وليرمنتوف روائيان بارعان كما يقول الدكتور سامي الدروبي في كتابه القيم (الرواية في الأدب الروسي) إلا أن الخالق الحقيقي للرواية الروسية إنما هو غوغول.

لقد دخل غوغول إلى الوسط الأدبي الروسي بسرعة مدهشة وحافظه، وفرض نفسه أدبياً معترفاً به وبجدارة في كتابه الذي صدر عام 1831 «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا». لقد أتاح هذا الكتاب الفذ ل (غوغول) دخول الأوساط الأدبية بصفته أدبياً متميزاً قدم إنجازاً أدبياً متميزاً، وما هي سوى فترة قصيرة نسبياً حتى عزز إبداعه هذا بالعديد من الكتب والقصص التي شكلت تطويراً بارزاً في القص الروسي، إلا أن «المعطف»، تعد بحق مجد غوغول بلا منازع، وفيها يقول ديستوفسكي قولته الشهيرة: «إن الرواية الروسية خرجت من (معطف) غوغول».

ليس من الصعب الإتهاد إلى يمكن العظمة في «المعطف»، إنه بكل وضوح استيعاب غوغول لتناقضات عصره والتعبير عنها بشكل لم يطرقه أحد سواه من قبل. لقد حول طرفية شائعة وقت ذاك إلى عمل فني رفيع المستوى ومدش، عكس الصير التراجمي للإنسان الشعبي البسيط في مجتمع اللهات المحموم من أجل الكسب. مجتمع الملكية الخاصة المقدسة والصنوة، والتي وضعت القوانين كلها ل حمايتها، أكثر مما وضعت لحماية الإنسان ذاته. حيث تنعدم المساواة وتضيق الفرص أمام الأغلبية الساحقة من الشعب، الذي كتب عليه أن يكذب ويكذب من دون الحصول حتى على الحد الأدنى من احتياجاته.

دخل الأدب الروسي حضيرة الأدب الأوربي في أواسط القرن الثامن عشر، الذي عده العديد من الدارسين أدب الواقعية بلا منازع، فالرومانسية مثلاً - إذا تم تجاوز بداية الأدب الروسي التي كانت متأثرة بالأدب الكلاسيكي الفرنسي، ومن ثم الإنكليزي والألماني - كتيار ومنهج لم تلبث قليلاً في روسيا في بداية القرن التاسع عشر. وهي «تكاد تنحصر في أزمة نمو بين كلاسيكية سطحية وواقعية هي في لب العبقرية القومية، واقعية لن

تلبت طويلاً حتى تتجلى على أبداع شكل في الرواية، فكان الأدب الروسي بين 1800 - 1820 يبحث عن سبيله، وكأنه يرتضي الرومانسية برهة ريثما يعثر على تلك السبيل، ولذلك فليس فيه رومانسي حقيقي واحد حتى من جماعة بوشكين. (بول فان تيغيم (الرومانسية في الأدب الأوروبي) الجزء الأول ص: 285).

ديستوفسكي: الرواية الروسية خرجت من (معطف) غوغول

صباح علي الشاهر

فيوشكين الذي بدأ رومانسياً خاصة كشاعر، والذي عد الممثل الحقيقي للأدب الروسي، كان بنفس الوقت الممثل الأبرز لتطور الواقعية على صعيد الأدب العالمي، وإذا كان حماس بوشكين الوطني، وبالأخص على إثر انتصار روسيا على نابليون قد جعله شاعراً رومانسياً مبرزاً، فإن هذا الحماس الوطني وموهبته الإبداعية فائقة الحد هما اللذان جعلاه يتخلى عن الرومانسية عندما أحس بوضوح بقصورها بعد أن قدم (بويريس غودينوف)، وإذا كان في هذا العمل قد طفق يتلمس طريقه، فإنه في (ايغنيي اينجن) قد عمق منحاه الواقعي، حيث رسم شخصيات تعيش زمناً روسيا محدداً، ومكاناً محدداً، وسيماء محددة، وقدم بكل غنى شخصياته التي تتنازعها مختلف المآثر والأهواء، وافضاً تقسيم الشخصيات إلى إيجابية وسلبية، ومقدما شخصيات مخلطة، تتطور وتتبلور مع سير وتطور الأحداث.

إن واحدة من إنجازات بوشكين الهامة، والتي وسمت الأدب الروسي بسمة الأساسية فيما بعد هي التاريخية التي تفتقر عنهم عميق لدور الوضع الاجتماعي للإنسان في تكوين شخصيته، يمكن ملاحظة كيف تغيرت (ناتانيا) عندما تحوّلت من فتاة ريفية إلى (مبتكرة آزياء) في الوسط المخملي.

لقد عرف بوشكين أن لكل طبقة نمطاً خاصاً في التفكير والشعور مميزاً لها، تبعاً لخصائص محيطها الاجتماعي ونتيجة هذا الفهم العميق صاغ بوشكين مبادئ الشعبية والتاريخية الاجتماعية إبداعية، واستحق بهذا الإنجاز وغيره من الإنجازات التي خلّدت اسمه تيوؤ الصدارة والريادة في التطور اللاحق، لا للأدب الروسي فحسب وإنما للأدب العالمي أيضاً.

ونحن في صدق تناول الرواية الروسية الواقعية، فإنه لا يمكننا بأية حال من الأحوال تجاهل (يطل من هذا الزمان) للشاعر الروسي العظيم ليرمنتوف، ذلك لأن هذه الرواية الفريدة التي ظهرت في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، قد تركت أثراً عميقاً في تاريخ الرواية الروسية. تتخذ الرواية أسلوب المذكرات والسرد، ويمكن القول إنها تتكون من خمس قصص يطلها الرئيسي شخصية واحدة هو «بتشورين»، الضابط الروسي في جيش القوقاز، وهو شخص واسع الذكاء، موهوب ومتقف ثقافة رفيعة، لكن روحه تنوء تحت وطأة الشوك والخيبة والضرر. يقول ليرمنتوف عن روايته: (إن (يطل من هذا الزمان) لهو صورة حقاً، ولكنه ليس صورة رجل واحد، إنه صورة تضم ردائل جيلنا كله). ويقول أيضاً: (أحييت على سبيل التفكّه أن صور إنسان هذا العصر كما فهمته، وكما اتفق لي أن لقبته في كثير من الأحيان).

سنستيق التسلسل التاريخي لتعقد مقارنات أو متشابهات بين (يطل من هذا الزمان) و(المراهق) لديستوفسكي، بين بيشورين وأركادي دولجوردكي أو (ركادي فرسيلوف).

من حيث البناء (يطل من هذا الزمان) كما أسلفنا اتخذت أسلوب المذكرات. صحيح أنه في بداية الرواية يتحدث راو ثم ينقل عن لسان شخص آخر قصة (بيلا). لكن المذكرات سرعان ما تعود، ليقدّم الراوي مذكرات بتشورين كما تركها، و(المراهق، مذكرات شخصية من أولها إلى

قصة قصيرة

الإهداء : إلى روح الراحل أبي الحبيب الأكثر التصاقاً بالأرض

تحب أبي كثيراً فهي مغرمة به منذ أن كان يغازلها بيديه اللين تزينهما ساعتان سويسرية الماركة ، ومع مرور الأيام تزداد علاقتهما ارتباطاً ، مازالا يتاهمسان كالعصافير التي تقطن شجرتي (السيسبان) و (الشبه) في (شعبة) جدتي لول

اختلف الوضع أخيراً وصار لزاماً على أبي أن تخضع لوجود ضرة أخرى تقاسمها اهتمام أبي .

عادة ما يغيب أبي عن البيت مدة لا تتجاوز أسبوعاً واحداً ، وكانت كلاب القرية قادرة على أن تشتم رائحته ورائحة سيارته العتيقة قبل أن يصل القرية من مسافات بعيدة فتتسابق لاستقباله ويمجد وصولة تلتف حوله مخاطبة إياه بلغة لا يفهمها سواه مع أنه يخاطبها بلغتنا المعروفة إلا أنها كانت تلتفت إليه وتحرك أذبالها بسعادة بالغة تؤكد فهمها لما يقول ، يوزع عليها حصتها من الأكل بالتساوي ، وإذا ما حاول أحدها الخروج عن النظام المعتاد ينهره قائلاً: (قسمة إخوة) فيعود الحال إلى ما هو عليه .

تحتضني أبي بعودة أبي كثيراً ، تزداد تفاصيل وجهها بهاء وائفة ، وتضع من عينيه ابتسامات تسكن تفاصيل جدران البيت ، لكن الآن هناك من يشاركها تلك اللفظة والحنين ويقاسمها فرحة عودته .

أبي وأمي وثالثهما...؟؟؟



< وضاح اليمن عبد القادر

طقوس الحمل عند أمي يرافقتها أشياء غريبة ، لقد كانت تأكل أثناء حملها بي من تراب الأرض الطينية بعد المطر ، ومن هنا عرفت سر ارتباطي بهذه الأرض ورفضني مغادرتها والرحيل إلى أرض أخرى ، ترافق حمل أمي في المرة الأخيرة مع حمل ضرتهما لكن هذه المرة اختلفت طقوس حملها عن المرات السابقة طلبت من أبي أن يحضر لها تفاحاً أحمر قاني اللون حال عودته وكالعادة لم ينس ما طلبته منه .

انشغل إخوتي الصغار بما جلبه لهم أبي من سفره بينما انشغل هو بتطبيع إحدى التفاحات إلى نصفين متساويين ، قدم نصفها لأمي ، وانتفض سريعاً ممسكاً بالنصف الآخر متوجهاً إلى الطابق السفلي من البيت تبعته أمي وسرعان ما تبعهما إخوتي الصغار

امتدت يد أبي إلى (.....) نظرت إليه وهي تفتح وتغمض عينيهما الجميلتين ، فتحت فمها ملتهمة نصف التفاحة الآخر ، مسح أبي على جسدها الحريري بحنان ، التفت إلى أمي مبرراً :

(هي مثلك حامل ، ونفسها في التفاح بس مش قادر تتكلم)

ابتسمت أمي ابتسامة تكاد أن تقطر ضوءاً ، أردف أبي مخاطباً إخوتي الصغار :

(البقرة أم)
(البقرة أم)

من مجموعة (ذاكرة الوجوه)